مناظرة

بين ابن رشيق وقسيس [1]

1- هذا العنوان موجود بين معقوفين في طبعة الأوقاف وفي الطبعة الحجرية توجد الطرة التالية: حكاية ابن رشيق مع الرهبان في الإعجاز.

ابن عَتِيق

(000 - نحو 680 هـ = 000 - نحو 1281 م)

الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي، أبو علي: شاعر، من أدباء الأندلس ومؤرخيها.

أصله من مرسية. استوطن سبتة، وأقام آخر أيامه بغرناطة. قال لسان الدين في ترجمته: كان شاعرا مفلقا عجيبا، قادرا على الاختراع والأوضاع، جهم المحيا موحش الشكل، يجيد اللعب بالشطرنج، واخترع فيه شكلا مستديرا، وألف كتابا كبيرا في (التاريخ) وكتابا سماه (ميزان العمل)

مصادر ترجمته: الإحاطة 1: 300 - 304 / الأعلام للزركلي 2 / 243

- نبدأ نصوص ابن رشيق بهذه المناظرة التي وقعت وهو في ريعان الشباب أو كما يقول هو: "وأنا إذ ذاك لما بقل وجهي" أي أنه كان غلاما لما تنبت له لحية. أما تدوينُها فيبدو أنه تم بعد ذلك. وقد ذكر ابن رشيق هذه المناظرة في تأليف له مفقود عنوانه :"الرسائل والوسائل" ونقلها منه أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة 914 هـ في كتابه المعيار وهي موجودة في الجزء الحادي عشر من الطبعة الفاسية الحجرية من الصفحة 118 إلى الصفحة 121 وتوجد في الجزء الحادي عشر كذلك من نشر وزارة الأوقاف المغربية من الصفحة 155 إلى الصفحة 158 .

وأول من تنبه إلى هذه المناظرة هو صديقنا الراحل الأستاذ فرنانـــدو دي لا كرانخا فقد وقف عليها في الطبعة الحجرية وترجمها إلى اللغة الإسبانية وكتب حولها بحثا رائدا عنوانه: مجادلة دينية بمرسية في زمن الفونسو الحكيم وقد صدر هذا البحث في مجلة الأندلس سنة 1966.

وفي أول سنة 1993 كتبت بحثا عنوانه: الجذور التاريخية للاستعراب الإسباني نشر ضمن أعمال ندوة المغرب في الدراسات الاستشراقية - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1993 .

وقد أشرت في هذا البحث باختصار إلى المناظرة المذكورة .

وفي أبريل من سنة 1994 ألقى صديقنا الأستاذ الدكتور محمود مكي بحثا جامعا في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعنوان هذا البحث: "مقامات الحريري وإعجاز القرآن في حوار مسيحي إسلامي في الأندلس " وهو منشور في العدد 79 من مجلة المجمع وفي آخره نص المناظرة.

وهذه المناظرة التي نعيد نشرها هنا في صدر أعمالٍ لابن رشيق تمثل حلقة من حلقات الجدل الديني في الأندلس الذي أصبح اليوم معروفا بفضل البحوث المذكورة وغيرها ولن أعرض في هذا التقديم المحدود إلى تناول محتوى المناظرة، ولكني أشير إلى مستوى هذا المحتوى الذي يدل على نبوغ ابن رشيق المبكر وقدرته على الحجاج وتمكنه من الجدل ووسائله وبراعته في النظم وقدرته على الارتجال وهو في تلك السن.

"1- ذكرَ أبو عليٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ رَشِيقٍ في كتابه "الرسائل والْوسائل" قال: كُنْتُ بمدينَة مرْسيةَ- جبرها [الله] أيامَ محنةِ أهلها بالدجنِ الذي عصَمَ الله تعالى من غَوائله، وخلَّصَ منْ حبَائله (2)؛ وكان قد وردَ عليهَا منْ قِبَلِ طاغية الرُّوم (3) جماعةٌ منْ قسِّيسيهمْ ورُهْبَانهمْ شَأْنُهُمْ الانقطاعُ في العبادةِ بزَعمهمْ، ونظرُ الْعُلُوم، مُشْرَئبُّون للنَّظَرِ في علُوم المسْلمينَ وتَرْجَمَتهَا بلِسَانهمْ برَسْمِ النَّقْد، خيَّبَ اللهُ تعالَى سَعْيَهُمْ! ولَهُمْ حِرْصٌ على مُنَاظَرةِ المسْلمين، وقصدٌ ذميمٌ في اسْتمَالَة الضُّعَفَاء، يأكُلُون علَى ذلكَ مَالَ طَاغيَتهِمْ، ويَسْتَمِدُّونَ به الجْاهَ منْ أهْلِ ملتهمْ، قطَعَ اللهُ دابرَهُمْ!

وكُنْتُ في ذلكَ الْوَقْتِ أجْلسُ بيْنَ يدَيْ والدي -رَحمَهُ الله تعالَى- لكَتْبِ الوثَائقِ وعُقُودِ الأحْكَامِ (4)، وأنَا إذْ ذَاكَ لَمَّا بَقَلَ وَجْهي، فَوَجبَتْ لمُسْلمٍ علَى نصْرَانِيٍّ يمينٌ في حقٍّ حُكمَ عليه بهَا، وأُمرْتُ أنا وشاهدٌ آخرُ بالحُضُورِ عليْهَا ليَتَقَاضاهَا الْمُسْلمُ منْه على ما يجب، بحيْثُ يُعظِّمُ النَّصْرانيُّ منْ دينه (5)،

2- ترد كلمات دجن وأهل الدجن والمدجنين في عدد من النصوص الأندلسية بمعنى المسلمين الذين بقوا تحت حكم النصارى عندما استولوا على بلدانهم وسمحوا لهم أن يكونوا تحت ذمتهم يؤدون إليهم الجزية، وفي الكلام العامي تستعمل كلمة دجل ودجال بقلب النون لاما ويقال في الإسبانية Mudejare وقد بدأ الدجن في مرسية سنة 639 هـ أو 640 هـ .

3- لا يعرف على وجه التحقيق هل المقصور به فرناند الثالث أم ولده الفونسو العاشر.

4- ظننت لما قرأت هذه العبارة أن الأمر يتعلق بنسخ الوثائق لا بتحريرها في هذه السن؛ بيد أن ما جاء بعدها يصرح أنه كان فعلا شاهداً وموثقا في السن المذكورة.

5- هذا بحسب ما جرى به العمل في الأندلس من قول الإمام مالك أن النصارى واليهود يحلفون حيث يعظمون وقد نظم ابن عاصم هذا فقال:

وجملة الكفار يحلفون ◆◆ أيمانهم حيث يعظمون

وثمة رسالة من الفونسو العاشر إلى حكام قرطاجنة تتضمن هذا المعنى. أنظر الحاشية رقم 59 من بحث ف. لاكرانخا.

فَتَوَجَّهْنَا مَعَهُمَا إِلَى مُجْتَمَعِ أولَئِكَ الرُّهْبَان بدارٍ كَانَ لَهُمْ بها كنيسةٌ يُعَظِّمونها، فلمَّا فَرَغْنَا مِنْ قَصْدِنَا اسْتدْعَانِي قِسِّيسٌ مِنْهُمْ مِنْ بِلاَدِ مراكش (6)، فصيحُ اللِّسَان، مُدْرِكٌ للكَلام، مُعْتَدلٌ في الْمُنَاظَرة، وأخذَ يَسْتَدْرِجُني للمُكَالمَة، ويقول:

أنتَ طالبٌ ونَبيه، وقدْ سَمِعْتُ بِوالدِكَ وبِكَ، وحدَّثَني الْمُسْلِمُونَ عَنْكُمَا بِخَيْرٍ وَعِلْم، وأنا أريدُ أنْ أكَلِّمكَ فيما لَكَ فيه مَنْفَعَةٌ وَلِي، وأنْتَ لسْتَ ممن يخَافُ أن يُخْدَع بالباطلِ، ولا مِمَّنْ يَخْفَى عليه الحقُّ ويُعَاندُ فيه إذَا ظَهَرَ لَهُ، فاجْلسْ مَعَنَا نأخذ في مسألةٍ من المُذَاكَرَة.

فأعْجَبَنِي كلامُهُ وتصَرُّفُه في الكلامِ الْعَرَبي، فجَلَسْتُ مَعَهُمْ، وقَعَدَ إليَّ مِنْهُمْ أربعَةٌ، وهُوَ أحدُهُمْ، وكَأنَّهُمْ تركُوه لِلْمُكَالمة، فأخذَ معي في أمْرِ المعجزَة أخذَ مُتَأدِّبٍ مَعَ الشَّارِع -صلَواتُ الله عليه وسَلاَمُه-، وذلكَ مِنْهُ خَوْفَ أنْ يُنَفِّرَنِي، ومَكيدَةً يَسْتَمِيلُني بها لسماع كلامِهِ، وكُنْتُ -بحَمْدِ الله- قدْ أحْكَمْتُ شيئاً مِنْ أصولِ الدِّين مَعَ والدي رَحِمَهُ الله تعالَى.

وقالَ لِي: أنْتُمْ تَقُولُونَ إنَّ مِنْ أعْظَمِ مُعْجِزَات نبِيِّكُمْ الْقُرْآن الْعَظِيم الَّذِي بأيْديكمْ قُلْتُ لهُ: نَعَمْ.

قالَ: وأنَا لا أتَكَلَّمُ مَعَك في غَيْرِهِ. وأنْتُمْ تَقُولُونَ إنَّ نَبِيّكُمْ تحَدّى بِهِ الْعَرب قاطبَةً في أحْفَلَ مَا كَانُوا مِنَ الفَصَاحَة، فَعجَزُوا، وأنَّ هذه النُّكْتَةَ هيَ أوْضَحُ نُكَتِ

6- بحث الراحل ف. لاكرانخا في كلمة مراكش الواردة هنا وفي اسم القسيس الذي ربما درس فيها حيث كانت توجد أسقفية معروفة ويظن أن القسيس المذكور هو رامون مارتي الذي ينسب إليه قاموس معروف.

الإِعْجازِ وأَجْلاَهَا وأَبْقَاهَا على الدَّهْرِ، بحيْثُ يقفُ عليْهَا الـمُتَأخِّرُ كَمَا وَقَفَ عليْهَا الْـمُتَقَدِّم، ويَسْتَوِي في التَّوصُّلِ إِلَيْهَا الخَاصُّ والْعَام.

قُلْتُ لهُ: نَعَمْ.

قـالَ: وأَنْتُمْ تَقْـرأونَ فـيـهِ: ﴿فإنْ لمْ تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾ (7)، وذلِكَ في آيةِ التَّحَدِّي ومَعْرِضِ التَّعْجِيزِ، وتَقُولون إنَّ نفْي الْمُسْتَقْبل الذي في قَوْله: ﴿ولن تفعلوا﴾ هُوَ النَّصُّ على أنَّ مَا كَانَ مِنَ الْـعَجْزِ عَنْهُ في الْوَقْتِ باقٍ فـيما بَعْدَ ذَلكَ إِلَى باقي الدَّهْرِ.

قُلْتُ لهُ: نَعَمْ.

قـالَ: ثُمَّ لَمْ يَبْقَ مُعَارِضٌ واحِدٌ في الْوَقْتِ، ثُمَّ لَـمَّا مضَتِ السِّنونَ والأحقَابُ، وانْقَرَضَ لِسَانُ الْعَرَبِ الصَّحِيح، واسْتَوْلَى عليهِ الْفَسَاد أَقَمْتُمُ الإِعْجَازَ وصَحَّ ذلكَ النَّفْيُ الْمُتَقَدِّم وُجوداً صدَّقَ الْخُبْرَ الخَبَر ورَأَيْتَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلْمُعَارَضَة مظنَّةُ تَقْدِير، وأنَّ الـمُتَأَخِّر في هَذَا حصلَ علَ ثلجِ الْيَقِينِ منَ الْـمُتَقَدِّم.

فَقُلْتُ لَهُ: أمَّا هَذَا فلا أَقُولُ فيه، إلاَّ أَنَّ الأَمْرَ اسْتَمَرَّ على مَا كَانَ عليْهِ أوَّلاً، ولاَ يَزِيدُ الـمُتَقَدِّمُ على الْـمُتَأَخِّر ولا الـمُتَأَخِّرُ على الـمُتَقَدِّم، والحَقُّ إذَا ظَهَرَ مِنْ وَجْهٍ واحدٍ في وقْتٍ مَّا لا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْوُجُوهِ صِحَّة، ولا تَدْفَعُ عَنْهُ شُبْهَة، ولَكِنْ هَذَا واقِعٌ في الوُجُود، كما قُلْت، فمَا تُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ عَلَى هَذَا؟

7- سورة البقرة، الآية 24 .

فَقَالَ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قولِه ونَزَّهَ الْوَحْيَ الْكَرِيمَ عَنْ تَخْيِيلاَتِه-: اِسْمَع الآنَ مَا أَقُولُهُ، ولا تَفْهَمْ عَنِّي أَنِّي أُرِيدُ بِهَ أَنَّ أحداً عَارضَ الْقُرْآنَ، أَوْ أَتَى فِي ذَلِكَ بِشَيْءٍ يُوقِعُ فِي النَّفْسِ احْتِمَالاً. لا واللَّه! لا أَقُولُ ذَلِكَ، ولا أَدَّعِي مَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحدٌ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ أَوْ غَيْرِهَا، ولَكِنِّي أَقُولُ شَيْئاً آخرَ افهمه عني وتثبت فيه، فَإِنَّهُ مَوْضِعُ نظَرٍ فِي نفْسِي مِنْه شَيْءٌ، ولَمْ أجِدْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ أحداً يُزِيلُهُ عَنْهَا ، على كَثْرَةِ سُؤَالِي عَنْهُ لِكُلٍّ مَنْ تَوَسَّمْتُ فِيهِ الْمَعْرِفَةَ مِنْكُمْ، وذَلِكَ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى "بالمقامات" قدْ أَجْمَعَ أهلُ مِلَّتِكُمْ على أَنَّ أهلَ الأدَبِ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ (8)، وكُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لِذَلِكَ لَمْ يأتِ بِشَيْءٍ يُقَارِبُهُ ولا يقَعُ مَوْقِعَه. ثُمَّ إِنَّ مُؤَلِّفَهُ مَع ذلك تحدَّى أهلَ اللِّسَان قاطبَة بشيْءٍ مِنْهَا، رأى أَنَّهُ لا يُؤْتَى بِمِثْلِه، وزادَ إِلَى ذلكَ بأَنَّهُ صَرَّحَ بِنَفْيِ الإِتْيَانِ في الْمُسْتَقْبَلِ تصريحاً لا يُمْكِنُ إِنْكَارُه، وذلِكَ قَوْلُهُ في المقامَةِ السَّادسَةِ والأربعين: "أنشد البيْتَيْن المطرفين، الْمُشْتَبِهَي الطَّرَفَيْنِ، اللَّذَيْنِ أَسْكَتَا كُلَّ نافث، وأمنا أنْ يُعَزَّزَا بثالث" فأنْشد:

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارُهَا ◆ ◆ وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى ولَوْ سِمْسِمَهْ

والمَكْرُ مَهْمَا اسْطَعْتَ لاتَاتِه ◆ ◆ لِتَقْتَنِى السُّؤددَ والمكرُمَهْ

وقَدْ مَضَتْ بَعْدَهُمَا الأعْصَار، وانْقَرَضَتِ الأجْيَال، فلَمْ يأتِ أحدٌ لَهُمَا بثالث كَمَا قالَ، لاَ فِي عَصْرِهِ، ولاَ بَعْدَ عَصْرِهِ (9)، على كَثْرَةِ دَرْسِ النَّاسِ لَهَا وتَدَاوُلِهَا في مَجَالِسِ الْمُذَاكَرَةِ، ومَحَافِلِ الأمرَاء (10) واشْتِهَارِهَا في الأمْصَار، فَعَلَى مَا

8- من المعروف أن مقامات الحريري عارضها عدد من الأدباء ومنهم الزمخشري في المشرق والسرقسطي في المغرب وكان هذا قبل هذه المناظرة.

9- لم يكن هذا القسيس المستعرب يعرف أن عدداً من الأدباء أتَوا لِبَيْتِي الحريري بثالث ورابع وأزيد. انظرها في الذيل والتكملة 4:49-53

10- يقول الصفدي في كتابه نصرة الثائر خلال كلام له عن مقامات الحريري: "ويحكى أن الفرنج يقرأونها على ملوكهم بلسانهم ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها".

تقرَّرَ أولا ووَجْدْنَاهَ عِنْدَ جُمْهوركُمْ في حقِّ الْقُرْآنِ مُسَلَّمَا يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ مَا أَتَى بِهِ الْحَرِيرِي أيضـاً في هَذَا الْمَـوْضِعِ مُـعْـجِـزَةً، وإنْ لَمْ يُرِدْ هُوَ ذَلكَ ولاَ قَـصَـدَ هَذَا الْمَقْصِدِ الَّذي نَحْنُ بِسَبِيلِه، لَكنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذلِكَ فِي الْوُجُودِ اتِّفَاقاً، ووَقَعَ وُقُوعاً لاَ مِرْيَةَ فيه. وأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ لا تَقُولُونَ إنَّهُ نبي، ولاَ يُمْكِنُكُمْ قَوْلُ ذلك، ولاَ أنَا أُرِيدُهُ، ولَكِنْ أُرِيدُ أنَّ هذَا أمْرٌ قَدْ وقَعَ لِمَنْ حَصَلَ التَّسْلِيمُ مِنْكُمْ فيه أنَّهُ غَيْرُ نبي. فما الْفَرْقُ بينَهُ وبَيْنَ مَا كُنَّا بِسَبِيلِه أولاً؟ اللَّهُمَّ إلاَّ أنْ تَسْتَعِينَ عَلَى ذَلِكَ بِقَرِينَةٍ أُخْرَى، أوْ بِقَرَائِنَ مِنْ غَيرِ الْقُرْآن، فتكونَ حِينئذٍ قدْ جَعَلْتَ القُرآنَ غيرَ مُسْتَقِلٍّ بِإثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّكُمْ. وليْسَ هذا قولُ أئِمَّتِكُمْ وَأَخَذَ يُقَرِّرُ أشياءَ منْ هذا القَبيلِ يَتَحَذَّرُ فيها مِنْ تَنْفِيرِي، فيتَأدَّبُ مَعَ الْقُرْآنِ عِنْدَ ذِكْرِه، ويُعَظِّمُ النَّبِي ﷺ متَى عَرَضَ لَهُ ذِكْرٌ ويقُولُ: النَّظَرُ في هذا أحقُّ عليكَ منهُ عليَّ.

فأدْرَكَنِي واللَّهِ انْبِعَاثٌ عظيمٌ للزِّيَادَةِ على الْبَيْتَيْنِ لَمْ أرَ آكَدَ عليَّ مِنْهُ في الْوَقْتِ، ولا أَلْجَمَ لِذَلِكَ الْمَخْزِيِّ مِنْهَا، فأخَذْتُ أبْدِي لَهُ الْفَرْقَ بيْنَ الْمَسْأَلَتَيْنِ بِطَرَائِقِ الْبَرَاهِينِ الأصُولِيَّة والأقْوالِ الْعِلْمِيَّة، وخاطِرِي مُشْتَغِلٌ بالتَّفَرُّغِ لِلزِّيَادَةِ عليهما، وهوَ يقُولُ في كل ما أقولُ لهُ:

قدْ سَمِعْتُ هَذَا وناظَرَني بهِ فُلان.

فقلتُ له: كذا

فـقـال: وسَمِعْتُ هذا الآخر، وقدْ ذكَر هذا الآخرُ فُلان في كِتَابِ كَذَا، واعْتَرَضَني فيهِ كذَا كذَا كذَا.

إلَى أنْ يسَّر الله في زِيَادَةِ بيْتٍ واحد، فقلْتُ لهُ:

- ومَعَ هذَا فقدْ زَادَ الناسُ على البيتين ولم يغفلوا عنهما (11).

11- يبدو أن ابن رشيق لم يكن هو أيضا مطلعا على معارضات بعض الأدباء لبيتي الحريري التي ذكرها ابن عبد الملك في الذيل والتكملة 4:49-53.

فقال لي:

وأيْنَ هذَا ؟ فوا الله ما رأيتُ أحداً ادَّعَى هذا ولا ذكَرَهُ يوما قط!

فقلْتُ لهُ: أنا أذكُرُ بيتاً ثالثاً لَهُمَا ولا أذكُرُ الآنَ قائله، ولم أرَ أن أنْسُبَه لِنَفْسِي في الوقت، لأنّي قدَّرْتُ أنَّهُ إنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ لا يَقَعُ مِنْهُ مَوقِعاً مُؤثِّراً. ثُمَّ أنْشَدْتُه:

والمَهْرَ مَهْرَ الْحُور وَهْوَ التُّقَى ◆ ◆بَادِرْ (بِهِ) البَكْرَةَ والمَهْـرَمَـه

فلمَّا سَمِعَهُ وأعدْتُهُ عليهِ حتّى فَهِمَهُ فكأنَّمَا ألْقَمْتُهُ حجَراً، ورأيْتُ فيه مِن الإنْكِسَارِ لذلكَ ما لَمْ أرَهُ عِنْدَ سَمَاعِ الحُجَجِ العَقْليَّة والمآخذِ الأصوليَّة. فأخذَ في الثَّنَاء عليَّ، وأخذَ أصْحَابُهُ يَسْألُونَهُ عَنْ تفْهيمِ ما قُلْتُهُ لَهُ، فأفْهَمَهُمْ إيَّاهُ، وقيَّدُوا البَيْتَ. ولَمْ أنْفَصِلْ إلاَّ وَهُمْ كالمُسَلِّمِين في انْقِطَاعِ شُبْهَتِهِمْ، قطعَ اللَّهُ دَابِرَهُمْ!".

ابن رشيق المُرسي

628 - 696 هـ / 1231 - 1296م

حياته وآثاره

دراسة وتحقيق

محمد بنشريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1429 هـ - 2008 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية